

الشعر العربي

في التاريخ

بحث انتقادي جديد في الشعر ورجاله من اقدم الازمان الى الآن
 (تعميد تاريخي) لللال الجغرافي الذي يبدأ في البحر الاحمر ويلتفت على
 سوريا والجزيرة مشياً بخليج الدجماهيية الكبرى في التاريخ. فهو مقر المنصر السامي
 ومنه نشأت اديان العالم العظيم - اليهودية والمسيحية والاسلام. على ان
 اليهودية لم تكن حتى في معظم قوتها السياسية الا حركة موضعية فقد انحصرت
 قوتها السياسية في قطر واحد لم تلبث حتى سقطت واصبحت فكرة روحية
 تربط بقايا مبشرة من الشعب الاسرائيلي في انحاء الممور. وما الصهيونية اليوم
 الا حركة استثمارية يراد بها استثمار فلسطين واحياء قوة اليهود السياسية في ذلك
 القطر وستبقى هناك مادامت اموال المستمرين وما رب الساسة تعندها ولكن
 لن تخرج عن كونها حركة موضعية فقط

اما المسيحية فقد نشأت على شواطئ البحر المتوسط الشرقية على انها لم تتم
 في الشرق ولا توسعت هناك بل وجهت قوتها الى الغرب فقطعت البحر والبر
 وهجعت بمبادئها على الملكة الرومانية فاستولت عليها وحوالت عرش الامبراطرة
 الى عرش رومي دينوي مفرد انفاً كان ثم خرجت منها السيادة الدنيوية فبقيت
 كما هي الآن قوة روحية تجمع تحت اجنحتها ام الغرب وعروشهم وقيلاً من
 ام الشرق

وخلا الجوف في الشرق الادنى لديانة اخرى ظهرت في الحجاز فانتشرت بين
 الامم الشرقية حتى استولت على غربي اسيا وشمالي افريقيا وحلت معها لغة لا تزال
 الى الآن لغتها المقدسة

ولانهماك دعائها الاولين بتأييد سلطانهم الذي لم يكن للآداب من مجال كبير
 بينهم ثم لما تحول الاسلام الى ملك عضوض عاصمته دمشق رأى اولو الامر يومئذ
 ان لا بد لهم من الرجوع الى العصبية الجنسية فتنادوا بافضالية العرب وانصرفوا

لثقوية هذه الفكرة الى الاخذ بتناصر الشعر العربي القديم بنشظوا اربابه واغدقوا عليهم العطايا واصطنعوا من اشعراء دعاة لهم ورفقوا للناس علماً مكتوباً عليه « الكمال الادبي للجمالية »

تلك احوال سياسية لم تلبث ان زالت. فان سلطنة دمشق انرسة على العصبية العربية قهرت امام سلطنة بغداد انقاعة على سيوف الاعاجم فلم تبق الجمالية في مرتبتها الاولى - مرتبة الكمال - اذ تسرب الى حياة الادب العربية دماء جديدة وافكار جديدة وهكذا حدثت في انصر العياشي تلك انهضة الفكرية العظيمة المبينة على العلم والفلسفة. ففسر الشعر شيئاً من روحه القديمة ولكنه ربح عواطف وصوراً جديدة فاصبح نوعاً ما عموماً وريماً كان ذلك من اهم الاسباب في انصراف بعض رجاله الى التأمل والنظر في الوجود كما سيجي.

ثم ضعفت سلطنة بغداد وتمزقت اطرافها دويلات ودويلات اكثرها غير عربي فضعفت بذلك شعلة الروح الادبية التي كانت تضطرم في نفوس الناطقين بالعربية واستماضوا عنها بالجمع والنقل والمنة ولم يطل امرهم كذلك حتى جاء القول فقصوا على بغداد واطفأوا ما كان باقياً من نور المدينة العربية في الشرق

ووافق ذلك قيام البربر في الغرب واستيلاءهم على بقايا السلطنة العربية في الاندلس فاطفأوا بذلك شعلة الادب العربي في تلك الاصقاع. واصبح الشعر العربي في ظلمات الاجيال التي تلك سقوط بغداد وقرطبة واشبيلية كثر صغير في فدافد رملية يجري قليلاً ثم يغوص في الرمال ويحجف في الرمضاء

وجاء القرن التاسع عشر بنوره العلمي منبثقاً من بلاد الغرب فانتبهت اليه ابصار الشرقين وهبوا من سياستهم يظلمون العلم والحضارة الحديثة وهذي هي النهضة الجديدة التي انتشرت اخيراً في الشرق الأدنى وقد دخل فيها الشعر العربي في طور جديد واصبح يرقل في برود قشبية من النضارة والاستقلال الفكري وانتشرت العلوم الطبيعية فرفمت القول واثارت النفوس وفتحت لشعر ابواباً جديدة. والمتناهلون يرون في هذه النهضة متسماً للرق لم يحلم به اجدادنا من قبل ولتقدون ان الشرق اليوم على عتبة نهضة اجتماعية لم يسبق لها مثيل في التاريخ ﴿ اضوار الشعر العربي ﴾ اشعر عموماً ثلاثة انواع - الغنائي وافرسي والروائي. فالغنائي ما يعبر عن عواطف خاصة من مثل الغزل او الرثاء او المديح او

الهجاء او العطف او العظة وما شاكل من انواع القريض التي تقتضيها العاطفة في ساعة هيجان النفس . واصل هذه التسمية ان هذا النوع من الشعر كان يعني او ينشد على الآلات فاتخذ له الغربيون اسم الغنائي Lyric سواء أعني ام لم يكن والغروسي Heroic or Epic وقد يسمى البطولي ايضاً ما يدور على شخص خاص او شخصية خاصة هي محور العواطف التي يمثلها الشعر اذ يصور أعماله ووقائمه او اخلاقه وصفاته في شكل يرفع النفس ويهيج عواطف العظمة فيها وربما استعير عن الشخص بالامة وعن أعماله بأعمالها واجدادها . اما الروائي فيتناول القصص والروايات من تمثيلية وسواها فيصور فيها احوال الحياة وعبر الزمان ويرسم فضائل النفس واختبارات الانسان في قالب روائي على نحو ما يقبلون في الروايات الثرية

فاذا دققنا في الشعر العربي رأيناه منحصراً في النوع الاول فكله او جلّه من الشعر الغنائي ولم نر شاعراً عربياً قديماً او حديثاً اهتم بغير هذا النوع من الشعر وقد اجاد فيه العرب كثيراً ولكنهم لم يتمدوه ولذلك جاء شعرهم من اول ازماته الى اليوم نوعاً واحداً فاذا قلنا اطوار الشعر العربي فنحن لا نعني الا الاحوال التي مرّ عليها في عصور التاريخ من حيث هو نوع واحد لا من حيث هو انواع او طرائق واهم هذه الاطوار ثلاثة

الطور القديم

ونعني به ما نظم من اقدم ازماته الى اواخر العصر الاموي اي في القرنين السادس والسابع وبعض القرن الثامن للميلاد . وقد رأينا ان نعمة بالقديم لقدمية تاريخه اولاً ولحفاظته على الاسلوب الجاهلي ثانياً . فان مواضعه ومراميه وتمايزه لم تتغير شيئاً يذكر في هذا الطور — الوقوف على الطول وتذب الظمان الراحة ووصف الشوق والوجد والتخلص الى المدح او الهجاء والفخر . ولا فرق بين شعراء الجاهلية فيه وشعراء الاسلام الا ان الاولين اذا صح كل ما روي لهم كانوا اقرب الى الطبيعة ابعد عن التكلف فهم اذا مدحوا او غرّوا مدحوا فرسانهم وفاخروا برجالهم او بانفسهم شعوراً بريحية او تأثر من فروسية . واذا وصفوا المآ في النفس او مشهداً من مشاهد الطبيعة وصفوا ما يرونه او يشعرون به وقد تبهم الاسلاميون الا ولّ ونسجوا على منوالهم وتجددوا في تمايزهم دون ان

يشعروا شعورهم أو يقفوا نفس موقفهم . وشان بين من يتكلم عن شعور تدفعه إليه طبيعته أو أحواله الخاصة ومن هو مدفوع إليه دفعاً لأرب ذاتي ومطامع مادية . ومع أنه لا داعي أن نبخس شعراء العصر الإسلامي الأول حقهم لاسيما وأن الرأي العام لا يزال يصور لنا مشاهيرهم بكبر والاختلال وانفردق بصور الأبطال الذين لا يشق لهم غبار فأنه لا يسعنا بعد النظر إلى دواوينهم بمنظار الانتقاد الحديث إلا أن نضمهم في محلبهم الحقيقي

فما شهرتهم التي نتمتعوا بها الأصدى تلك الحركة السياسية في الدولة الأموية التي رفعت شعراء الخلفاء والأمراء إلى أعلى عليين . ومن يقرأ أشعارهم يمجب بقوة شاعريتهم أي بمقدرتهم على النظم ومرعة خواضرم في ذلك ولكنها يستصغر تلك الروح التي تتمثل في قصائدهم ويتعجب من شغف الناس بقصائده لا قيمة لها إلا أنها مشهورة

فلا ريب أن الشعر الجاهلي أفضل أنواع الشعر القديم لأنه على بساطته وسذاجته يمثل لنا الطبيعة وعواطف الأنسان ويهيج في نفوسنا عجة الجمال الطبيعي والرغبة في فضائل الرجولة وحسب ذلك أن يجعل الشعر شعراً جميلاً معها كان صاحبه . ولا يرى هذا الجمال خارج الشعر الجاهلي في ذلك العصر القديم إلا في نشائد الحب التي اشتهر بها جميل وكثير وقيس وعمر وانراهم من الضاربين على أوتار القلب الهائمين في مهام الحب

﴿ المواطف التي يمثلها الشعر القديم ﴾ فإذا ذكرت ما يمثلها الشعر القديم من المواطف فأعني الشعر الجاهلي بالأخص وهذه المواطف أو السجايا كثيرة أهمها ما يلي :

الكرم — رفع الشعر القديم الكرم إلى درجة عظيمة من الكرامة فجعل حاتم ملي والحارث بن عوف وممنا وهم بن سنان وسواهم من الأجراد أبطالاً يضرب بهم المثل . والكرم في كل عصر وفي كل أمة مظهر من مظاهر النفس التي تستحق المدح والاحترام ولاسيما في أمة كالامة العربية وفي بلاد كبلاد العرب الكرم فيها ضروري ومفيد جداً للناس . هناك لا يرى المسافر غير منازل الأجراد مأوى ولا يجد غير ذبايحهم طعاماً فلا بدع أن يشعر بماطفة قوية من أنكر لمن آواه في البيداء واضمه ورواه في الرضاء . وقد عرف أمراء العرب ذلك

فتباروا في مظاهر الجود حتى صار هم الواحد منهم ان يكون مقصد الناس وحديث
اسماهم وللوصول الى هذه الغاية لم يحسبوا شيئاً ممكناً عن ضيوفهم عما يجعلهم
آمنين ناعمين . وما نحن اليوم لا تزال تترنم مع مئات الاجيال الماضية عندنا
الاجواد وبسطة ايديهم

انفروسية — ويدخل فيها الشجاعة والتجدة واحتمال المكروه وهي صفة لازمة
لمن كانت معيشتهم على الغزو والحرب . تراها في عصور الجاهلية القديمة كما تراها
اليوم بين رجال الحرب والجلاد . وللنفروسية تأثير كبير على النفس ولاسيما اذا كانت
مقرونة بالقوة الجسدية . ولذلك اصبح عنزة بن شداد وهو ابن امة مثالا أعلى في
تاريخ العرب وما ذلك الا لان الشعر صورته لهم كبطل مغوار لا يهاب المنايا . ومثل
عنزة عدد كبير من فرسان العرب الذين لا ميزة لهم الا شدة في الحرب
وشجاعتهم عند الصدام

الفخر — جيل كالعرب مؤلف من قبائل وعشائر لا شيء اقرب الى طبائعهم
من التمسب للقبيلة والتفاخر بعلمها . والفخر عند العرب منزلة كبرى ولم
يكن الشعراء الا لسان حال القبائل يوم التفاخر وسلاحها الماضي في المصارع
الكلامية وساحات النضال . وقد خفف الاسلام في اول امره الفخر بالعصبية
او العشيرة ولكنه لم يقتله اذ ما لبث ان ظهر بعد برهة في مظاهر مختلفة
كما ترجع الى سجية واحدة هي حب التفاخر بالعشيرة . وما تمسب الشعراء في
العصر الاموي للاحزاب السياسية التي كانت تتطاحن فيه الا صدى تمسبهم
لمشائهم في الجاهلية — نعم الاسباب مختلفة قليلا ولكن الروح واحدة وهذه
الروح الفخرية عامة في جميع الامم وما الدعوات الادبية والدينية او المظاهرات
الصحافية الا مظهر من مظاهر الفخر او العصبية التي تغيرت بتغير الاحوال
وتحوّلت بتحول الاسباب الداعية اليها

حفظ النمام — او الوفاء ويراد به البر بالوعد والمحافظة على عهد وهي من اعز
الصفات واسماها والشعر العربي القديم ملآن من اخبار الذين عرفوا بهذه المزية
واشهرهم السموأل الذي اصبح يضرب به المثل بالوفاء . على ان الوفاء عند العرب
اكثر ما يراد به المحافظة على عهد النسيب او الضيف او المائد وما انهم ولا يراد
به عادة ما يفهم من معناه الواسع اليوم من عدم الفدر بالمدوّ او المحافظة على

ماله . نعم قد نجد لهذا النوع من الوفاء بعض امثلة في تاريخ العرب القديسه ولكن
الذي يدرس احوالهم ويدقق في طبائعهم لا يرى هذه الفكرة الروحية قد بلغت
عندهم مبلغها اليوم بين الامم التي ارتقت اداها انعمومية ونظرياتها الاجتماعية .
لا اتول ذلك من قبيل التحكم او الاعتناع الذي لا مرد له ولكن من قبيل الاستناد
على مظاهر اجتماعية قد اكون غطتاً في تأويلها

ولشعر القديم سجايا كثيرة غير ما ذكر . كالصراحة وذم الرضا والبر على
الاذى وما شاكل مما هو معروف وقد كان بوذي لو استشهدت على كل سجية من
السجايا التي ذكرتها آنفاً بايات من الشعر القديم ولكن ذلك يطيل الكلام ولا
اهون من ان يفتح الراسب كتاب الحاسة او دواوين الاقدمين فيرى تلك السجايا
ظاهرة للعيان
انيس الخوري المقدسي

فتح الاندلس

(٣)

حين تم ليوليانات وطريف النصر اخذ موسى بالاستعداد واستجد عزماً في
اقتحام اسبانيا فدعا مولى له كان على مقدمته ومن اكبر المحرضين على غزوها
يدعى طارق بن زياد بن عبد الله . ويقول كويه Coppel انه فارسي همداني وقد صار مولى
لموسى من صفوه الا انه على الراجح بربري من نغزة ولذا لقبه المؤرخون بطارق
البربري . وكان طويل القامة احمر الشعر مبيضته ويدعوه الاسبان طارق Eltuerto
اي الاحول (١)

فمقد له موسى سنة ٧١١ وبنته في سبعة آلاف من الجنند جلهم من الفرسان
البربر والموالي . اما العرب فكانوا قادتهم وضباطهم وهم لا يزيدون على الثلاثمائة .
ووجه مئة يوليان عمل هذا الجنند اسطول تجاري يتألف من اربع سفن يخمر في
عباب الرقاق . وهو خاصة يوليان وقد نزل الجنند في منت كبه Mont Calpe الذي
دعي جبل الفتح او جبل طارق